الحديث الثالث عشر

البر والإثم

عن النَّوَّاس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ قال: سألتُ النَّبيَّ ﷺ عن البرِّ، والإثم، فقال: «البرُّ حُسْنُ الخُلُق، والإثمُ ما حَاكَ في صدركَ، وكرهتَ أنْ يَطَّلعَ عَلَيْهِ النَّاسُ». رواه مسلمٌ، وأحمد، والتِّرمذيُّ، والطَّحاوي[1]. وأورده النَّوويُّ في «الأربعين»[2] وقد أشار في المقدِّمة إلى أنَّ كلَّ حديثٍ منها قاعدةٌ عظيمةٌ من قواعد الدِّين، قد وصفه العلماء بأنَّ مدار الإسلام عليه، أو هو نصف الإسلام، أو ثلثُه، أو نحو ذلك.

إنَّ تحديد كثير من الكلمات الشَّائعة المتداولة أمرٌ له فائدتُه البالغة؛ لأنَّ تحديد الكلمة، والمصطلح، ووضوحه في الذِّهن خطوةٌ لا بُدَّ منها للاقتناع بمدلول الكلمة، والمصطلح، ثمَّ الصُّدور عنه في تصرُّفات المرء في الحياة.

فالنَّواس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ جاء إلى المدينة، وبقي فيها مدَّةً، كما تدلُّ على ذلك روايةٌ للحديث أخرجها مسلمٌ؛ ليستزيد من المعرفة بأحكام هذا الدِّين، وقيمه، وها هو ذا يسأل عن البرِّ، والإثم، فيجيبه الرَّسول ﷺ محدِّداً مدلول هاتين الكلمتين تحديداً شاملاً دقيقاً.

---

(١) مسلمٌ برقم ٢٥٥٣، وفي الطَّبعة القديمة ٨/ ٧، وأحمد ٤/ ١٨٢، والتِّرمذيُّ برقم ٢٣٨٩، ومشكلُ الآثار ٣/ ٣٤، والأدب المفرد للبخاريِّ برقم ٢٩٥، وانظر صحيح التِّرمذيِّ للألبانيِّ برقم ١٩٤٧.

(٢) الأربعون النَّوويَّة: الحديث السَّابع والعشرون.

ونصوص الدِّين كلُّها توضيحٌ للبرِّ ، والإثم . . للطَّاعة ، والمعصية . . . للحلال ، والحرام ، ومِنْ أجل ذلك عدَّ بعض العلماء هذا الحديث من الأحاديث الَّتي عليها مدارُ الإسلام .

والبرُّ : اسمٌ للخير ، ولكلِّ فعلٍ مَرْضيٍّ ، وهذا يشمل كثيراً من معاني هذه الكلمة ؛ الَّتي وردت لها في معجمات اللُّغة ، كالصِّلة ، والمعروف ، والاتِّساع في الإحسان ، والصِّدق ، والطَّاعة ، والعفو ، والثَّواب .

قال النَّوويُّ :

[قال العلماء : البرُّ يكون بمعنى الصِّلة ، وبمعنى اللُّطف ، والمبرَّة ، وحُسْن الصُّحبة ، والعِشْرة ، وبمعنى الطَّاعة ، وهذه الأمور هي مجامعُ حُسْنِ الخُلُق][1] .

وقد وردت في القرآن ثماني مرَّاتٍ ، خمسٌ منها في البقرة ، والباقي : في آل عمران ، والمائدة ، والمجادلة ، بمعانٍ متقاربةٍ .

قال ابن رجب : [البِّر يطلق باعتبارين مُعَيَّنين :

أحدهما : باعتبار معاملة الخلق بالإحسان إليهم ، وربَّما خصَّ الإحسان إلى الوالدين ، ويُطلق كثيراً على الإحسان إلى الخَلْق عموماً . . .][2] .

وإذا قُرِن البرُّ بالتقوىٰ كما في قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٢] .

فقد يكون المراد بالبرِّ معاملة الخَلْق بالإحسان ، وبالتَّقوىٰ معاملة الحقِّ (سبحانه) بفعل طاعته ، واجتناب محرَّماته .

وقد يكون أُريد بالبرِّ فعلُ الواجبات ، وبالتَّقوىٰ اجتنابُ المُحرَّمات .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة : ٢] .

---

(١) شرح صحيح مسلم للنَّوويِّ ١٦/ ١١ .

(٢) تشير النقط إلى كلامٍ محذوفٍ .

قد يراد بالإثم المعاصي ، وبالعدوان ظُلْمُ الخَلْق.

وقد يراد بالإثم ما هو محرَّمٌ في نفسه كالزِّنى ، والسَّرقة ، وشرب الخمر . وبالعدوان تجاوزُ ما أُذن فيه إلى ما نُهي عنه ممّا جِنْسُه مأذونٌ فيه ، كقتل ما أبيح قتله بقصاصٍ. ومن لا يُباح قتلُه.

والمعنى الثَّاني من معاني البرِّ : أن يراد به فعلُ جميع الطَّاعات الظَّاهرة ، والباطنة ، كقوله تعالى : ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] . . . فالبرُّ بهذا المعنى يدخل فيه جميع الطَّاعات الباطنة ، كالإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والطَّاعات الظَّاهرة ، كإنفاق الأموال فيما يحبُّه الله ، وإقام الصَّلاة ، وإيتاء الزَّكاة ، والوفاء بالعهد ، والصَّبر على الأقدار ، كالمرض ، والفقر ، وعلى الطَّاعات ، كالصَّبر على لقاء العدوِّ.

وقد يكون جواب النَّبيِّ ﷺ في حديث النَّواس شاملاً لهذه الخصال كلِّها؛ لأنَّ حسن الخلق قد يراد به التَّخلُّق بأخلاق الشَّريعة ، والتأدُّب بآداب الله الَّتي أدَّب بها عباده في كتابه][1].

وقال ابن عمر: «البِرُّ أمرٌ هيِّن ، وَجْهٌ طَلْقٌ ، وَلِسَانٌ لَيِّن».

والإثم: المعصية ، والذَّنب ، وقد تُسمَّى الخمر: إثماً ، قال الشَّاعر:

شَرِبْتُ الإثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي كَذَاكَ الإثْمُ تَذْهَبُ بالعقولِ

وقال ابن رجب:

[وصحَّ عن ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ: أنَّه قال: الإثمُ حوَّازُ القلوب.

---

(١) جامع العلوم والحكم ٢/ ٩٧ ـ ٩٩.

وروىٰ الإمام أحمد عن عبد الله: أنَّه قال: إيَّاكم وحزائز القلوب، وما حزَّ في قلبك؛ فدعه.

قال أبو الدَّرداء: الخير في طمأنينةٍ، والشَّرُّ في ريبةٍ...

وقيل لابن مسعود: أرأيت شيئاً يحيك في صدورنا: لا ندري: حلالٌ هو أم حرامٌ؟ فقال: إيَّاكم والحكاكات فإنَّهن الإثم، والحكُّ، والحزُّ متقاربان في المعنى، والمراد ما أثَّر في القلب ضيقاً، وحرجاً، ونفوراً، وكراهيةً][1].

يقول رسول الله ﷺ: «البرُّ حسنُ الخُلق».

لقد أعار الإسلام حسن الخُلُقِ النَّصيب الأوفر من عنايته، واهتمامه، ودعا النَّاس إلى بلوغ مستوى راقٍ في معاملة بعضهم لبعضٍ، ومعاشرة بعضهم لبعضٍ، بل إنَّ إتمام مكارم الأخلاق هدفٌ سامٍ جليلٌ لبعثة النَّبيِّ ﷺ يقول ﷺ: «إنَّما بُعثت؛ لأتمِّم مكارم الأخلاق»[2].

ورعاية الإسلام للأخلاق كانت في إطارٍ من مراعاة الفطرة البشريَّة؛ فالأخلاق المأمور بها في الشَّرع، كلُّها ممَّا يستطيع الإنسان إتيانه، ويقوىٰ عليه، وليست أوامر مثاليَّةً بعيدةً عن الواقعيَّة، والإمكان.

إنَّ تحلِّي أفراد الأسرة بحسن الخلق سببٌ لسعادة هؤلاء الأفراد، ووسيلةٌ لإنشاء جيلٍ سويِّ النَّفس، خالٍ من العقد النَّفسيَّة، يَقْوَىٰ على تحمُّل الصِّعاب، والنُّهوض بالواجبات، ويُسهم في إسعاد مجتمعه.

واتِّصاف أبناء الأمَّة بحسن الخُلق أمارةٌ على رقيِّ ذلك المُجتمع، وسببٌ لسعادة أبنائه، وأمنهم، وتمتُّعهم بما أحلَّ الله للناس، إذ إن الجرائم تمَّحي،

---

(١) جامع العلوم والحكم ٢/ ٩٦.

(٢) انظر مسند أحمد ٢/ ٣١٨، والمستدرك ٢/ ٦١٣، والأدب المفرد رقم ٢٧٣، وأورده مالكٌ في «الموطأ» بلاغاً بلفظ: «بُعثت لأتمم حسن الأخلاق»، ٢/ ٩٠٤. قال ابن عبد البرِّ: هو متَّصلٌ من وجوهٍ صحاحٍ عن أبي هريرة، وغيره مرفوعاً. وانظر تعليقنا على الحديث في «مختصر المقاصد»، رقم ١٨٤ وانظر «أسنىٰ المطالب» ٧٠.

والأمن على النَّفس ، والعرض ، والمال ينشر ظلاله الوارفة على النَّاس في ذلك المجتمع .

وإنَّمَا الأمَمُ الأخلاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلاَقُهُمْ ذَهَبُوا

إنَّ حُسْنَ الخُلق أمرٌ دعا إليه الشَّرْعُ المطهَّرُ في آياتٍ ، وأحاديثَ كثيرةٍ جدًّاً ، ومنه ما هو واجبٌ ، ومنه ما هو مندوبٌ ، ولكنَّه في كلِّ أحواله وسيلةٌ يبلغ بها المرء رضوان الله ، والسَّعادة التَّامَّة في الدُّنيا ، والآخرة ، ويكون بها سبباً في إسعاد مَنْ حوله من النَّاس .

فليحرص المسلم العاقل على محاسن الأفعال ، وليتخلَّص من مساوئ الأخلاق ، ففي ذلك امتثالٌ لأمر رسول الله ﷺ القائل : «اتَّق الله حيثما كنت ، وَأَتْبِع السَّيِّئة الحسنةَ تَمْحُها ، وخالق النَّاسَ بخلقٍ حسن» [1]، واستزادةٌ من الخير ، وتمتينٌ لأواصر المودَّة بين المسلمين . وإنَّ لنا في تاريخنا الأغرِّ لعبرة بالغة فعندما كان الإسلام يحكمُ حياة المسلمين الفرديّة ، والاجتماعيَّة ، والسِّياسيَّة ، والاقتصادية كان مجتمعهم المجتمع المثاليَّ ؛ الَّذي يسود فيه الخُلُق الحسن ، ويحقِّق العدالة ، ويُقيم القسط بين النَّاس ، ويُؤمر فيه بالمعروف ، ويُنهىٰ فيه عن المنكر .

والمسلمون أُتوا يوم أُتوا من ناحية التَّساهل في التزام أحكام الإسلام، وأخلاقه، حتَّى أصبحنا نرىٰ كثيراً منهم يعيشون في مجتمعاتٍ مريضةٍ ، تكثر فيها المظالمُ والمآسي ، وقد تسود الرَّذيلةُ قطاعاتٍ من تلك المجتمعات مستعلنةً ، ينشط أصحابها في نشرها ، والدَّعوة إليها ، وقد ترفعُ بعضَهم الظروفُ إلى أن يشغلوا بعض الجوانب الهامَّة المؤثِّرة في الحياة العامَّة ، وقد يتسلَّل بعضهم إلى السَّيطرة على وسائل تكوين الرَّأي العامِّ في الأمَّة، كالصَّحافة، والإذاعة، وأجهزة التَّعليم، ودور السِّينما، ومؤسَّسات النَّشر، يحاولون القضاء على كلِّ مظهرٍ حيٍّ من مظاهر الأخلاق الفاضلة ، ويعملون تحت شعاراتٍ برَّاقةٍ خدَّاعةٍ ، من نحو خدمة الفنِّ، وإشاعة الثَّقافة الجديدة ، ويدَّعون: أنَّ التَّحرُّر من العادات (ويريدون الأخلاق) هو سمَّة المثقَّفين التَّقدُّميِّين .

---

(١) رواه الترمذي برقم ١٩٨٧ والدارمي ٢/ ٣٢٣ وأحمد ٥/ ١٥٣ .

إنَّ الأمَّة عندما تَفْسُد أخلاقها ، وتتخلَّى عن دينها ـ وهو أهم مقوِّمات وجودها ـ تكون قد انتهت ، وقضي عليها قضاءً تامَّاً.

أذكر أنِّي قرأت أيام كانت فرنسا في الجزائر تقريراً للمستعمرين ، يقولون فيه: إنَّ فتك مومسٍ ، وزجاجة خمرٍ أشدُّ من فتك كتيبةٍ من الجيش الفرنسيِّ بكامل عدَّتها.

ويعجبني قول محمَّد قطب:

[وقد يدرك الفلاسفة ، والمشتغلون بالقضايا الفكريَّة: أنَّ التَّحلُّل الخُلُقيَّ شرٌّ على الإنسانيَّة يعود عليها بالبوار ، ويبدِّد طاقتها في محيطٍ حيوانيٍّ هابط ، فلا تتطلَّع إلى الارتفاع ، ولا تجد الطَّاقة اللاَّزمة له لو اتَّجهت إليه ، ولكنَّ غمار الناس لن يدركوا ذلك؛ لأنَّه قد لا يقع في جيلهم ، فقد تظلُّ الأمَّة سليمةً من الظَّاهر جيلاً ، أو جيلين ، أوثلاثة ، بينما التَّحلُّل الخُلُقيُّ يسري في كيانها خفياً كالسُّوس ، فيتعذَّر على الشَّخص العاديِّ ، أو الشَّخص المنجرف بطبعه وراء اللَّذات أن يصدِّق أنَّ تحلُّله هو ـ وهو فردٌ واحد ـ أو أنَّ الجريمة العابرة التي يرتكبها خلسةً في الظلام يمكن أن تؤثِّر في خطِّ سير المجتمع ، وتؤدِّي إلى انهياره. وحتى إذا صدق بذهنه ؛ فإنَّه بغير تهذيبٍ دينيٍّ لا يستطيع أن يمتنع عن اللَّذة العارمة ؛ الَّتي يُحِسُّها من أجل خطرٍ لا يرىٰ: أنَّه سيقع عليه مباشرةً ، حتَّى إذا وقع في نفس الجيل.

فإذا فرضنا أنَّ الدَّولة من عندها ـ أي بالقوانين الأرضيَّة وحدها ـ تعاقب على الجرائم الخُلقيَّة حين تضبطها، فهي لن تستطيع أن ترى كلَّ جريمةٍ، ولا أن تتعقَّب كلَّ مجرمٍ ، وسيفلت منها كثير من الجرائم بلا إثباتٍ ، ولا عقابٍ ، ومع ذلك فهذا فَرضٌ نظريٌّ في الوقت الحاضر ، فدول الغرب (المتحضِّرة) كلُّها لا تكاد تعاقب على هذه الجرائم إلا حين تقع كُرْهاً ، أو على القاصرين.

وإنَّما يحتاج الامتناع عن الجريمة الخُلُقيَّة إلى الارتباط بالله ، وذلك وحده هو الضَّمان. الارتباط بالله هو الَّذي يهذِّب النَّفس ، فلا تندفع وراء الجريمة ، وهو الَّذي يقيم أهدافاً أعلىٰ من أهداف الأرض ، تستنفد الطَّاقة الجسديَّة ،

والنَّفسيَّة الفائضة ، فتصرفها عن عالم الشَّهوات. وهو الَّذي يقيم في داخل النَّفس حسيباً يراقب كلَّ عملٍ لا تصل إليه يد القانون ، ولا تبصره عين الدَّولة ، وهو الذي يعوِّض الإنسان عن لذائذه الموقوتة؛ الَّتي يتركها في الأرض أملاً في النَّعيم الدَّائم في السَّماء.

وهو الَّذي يُحدث في نهاية الأمر رهبةً من الجريمة أقوىٰ من رهبة الدَّولة والقانون ، وبهذه العوامل كلِّها مجتمعةً ، وممتزجةً في العقيدة يمتنع النَّاس عن ارتكاب الجريمة ، فإذا أضيف إلى ذلك أن تكون القيود الَّتي تفرضها العقيدة معقولةً في ذاتها ، لا تحرم إلا المتاع الزَّائد عن الحدِّ ، ولا تكبت الشَّهوات من منبتها؛ فقد استوت لها العدالة مع القدرة على التَّهذيب ، وذلك ما يتحقَّق في العقيدة الإسلاميَّة الَّتي تعترف بالشَّهوات على أنَّها الأمر الواقع بالنِّسبة للبشر: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٤] ، ولكنَّها فقط تهذِّب التَّنفيذ العمليَّ لهذه الشَّهوات ، فتقف بها عند الحدِّ الَّذي لا يؤذي الفرد ، ولا المجتمع ، ويتيح في الوقت ذاته قسطاً معقولاً من المتاع](١).

إنَّ الخُلُقَ الكريم اليوم في أزمةٍ قاسيةٍ ، إذ انتكست المقاييس ، واختلَّت عند كثيرٍ من النَّاس ، فأصبح الذَّكاء والدَّهاء عند هؤلاء أن يداهن المرء ، ويكذب ، ويغشَّ ، وأضحت الشَّهوة ، والمصلحة عندهم فوق أيِّ قيمةٍ ، وصار الرَّجل المحترم في نظرهم هو الَّذي يملك المال الوفير.

وكان عاقبة أمرهم اضطراباً في الأمن ، ووهناً أمام الأعداء ، واستسلاماً ، وانحلالاً في الخُلُق ، وضنكاً في المعيشة.

والطَّريق الوحيد للإصلاح ، والإنقاذ هو العودة إلى الدِّين «لا يصلح آخر هذه الأمَّة إلا بما صلُح به أوَّلُها ألا وهو الدِّين»(٢) وأن تستيقظ العاطفة الدِّينيَّة ،

---

(١) في النَّفس والمجتمع لمحمَّد قطب ٢٠ ـ ٢١.

(٢) هذه الكلمة الرَّائعة للإمام مالك رحمه الله! انظر إغاثة اللَّهفان لابن القيِّم تحقيق محمَّد حامد الفقي ١/ ٢٠٠. وفي طبعة صحَّحها محمد عفيفي ١/ ٣١٤.

وتزداد معرفتهم بالكتاب ، والسُّنَّة ؛ ليعلموا ذاك المعنى النَّبويَّ الكريم ؛ الذي يقرِّره هذا الحديث من أنَّ طاعة الله في حسن الخُلُقِ ، «البرُّ حُسْنُ الخُلُق» .

إنَّ الخُلُقَ الحَسَنَ يُساعد على تحقيق مقاصد الشَّريعة ؛ الَّتي يقرِّرها علماء الإسلام مِنْ حفظ الدِّين ، والنَّفس ، والمال ، والعقل ، والنَّسل[1] ، وهذه المساعدة على تحقيق تلك المقاصد تفسِّر تحديد الرَّسول الكريم ﷺ للبرِّ بأنَّه حُسْنُ الخُلُق .

لو كان الخُلُق الحَسَنُ قائماً في دنيانا ـ نحن المسلمين ـ لما وجدت سوقاً للنِّفاق رائجةً ، ولما ألفيت خائناً لأمَّته ، ولا غاشّاً لإخوانه ، ولا لِصّاً معتدياً ، ولا مفسداً في الأرض يقطع الطَّريق ، ويسفك الدَّم ، ويروِّع الآمنين ، ولامَّحت كثيرٌ من الظُّلمات الَّتي تخيِّم على كثيرٍ من البيوت ، فتملؤها غمّاً ، وهمّاً ، وحسراتٍ ، وفجائع .

ويوم يُخالق المسلمون إخوانهم بالخُلُق الحسن ، ويُمَكِّنُ لِلْقِيَم والمُثُل في الحياة الواقعيَّة في مجتمعاتهم ، نتخلَّص من معظم مشكلاتنا الَّتي تشدُّنا إلى أرض التَّخلُّف ، وتقعُد بنا عن اللِّحاق بالأمم المتقدِّمة ، وتنحِّينا عن مكان القيادة ؛ الَّذي أحلَّنا الله إيَّاه عندما جعلَنا شهداء على النَّاس ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣] ويومئذٍ نتخلَّص من مُعظم أمراضنا ؛ الَّتي تقضُّ مضجعنا ، وتَحرِمُنا السَّعادة ، وتُلهينا عن الانطلاق في أرجاء الدُّنيا ندعو إلى الإسلام: دينِ الحقِّ ، والعدالة ، والخير ، والقوَّة ، والسُّموِّ ، والسَّلام .

وأجدر النَّاس بالاتِّصاف بالخُلُق الحسن الآباء ، والمعلِّمون ، والحكَّام ، والمربُّون ، والدُّعاة المصلحون ؛ لأنَّ الخُلُقَ الكريم أنجعُ وسيلةٍ في التَّربيةِ ، والتَّعليم ، والدَّعوة ، والإصلاح . والمعاملةُ الحسنة تجعل النَّاس أكثرَ استجابةً للدَّعوة .

---

(١) انظر كتاب أستاذنا الزَّرقا ١/ ٩٢ ، وكتاب «الموافقات» للشَّاطبي .

إنَّ الَّذين ساءت أخلاقُهم ، ومعاملتُهم يسيئون إلى أنفسهم ؛ إذ تسوء سُمْعتهم في الدُّنيا ، ويتعرَّضون للعذاب الشَّديد في الآخرة ، ويسيئون إلى ذويهم ، وأهليهم ، وجيرانهم ، وكلِّ مَنْ يتَّصل بهم ؛ إذ يعتدون عليهم ، ويؤذونهم أنواعاً من الإيذاء . . . ويغرسون روح الشَّرِّ في أولادهم ، ويُعدُّونهم ؛ ليكونوا مجرمين ، وقد دلَّت الإحصاءات على أن عدد المجرمين الَّذين ينحدرون من آباءٍ فاسدين يشكِّل النِّسبة الكبرىٰ في عدد المجرمين[1] .

والطَّامة الكبرى عندما يدَّعي بعض هؤلاء الفاسدين في أخلاقهم ، وسلوكهم : أنَّهم دعاةٌ إلى الأفكار الصَّالحة السَّليمة . . . إنَّهم بذلك يُسيئون إلى هذه الأفكار وينفِّرون النَّاس منها . . . وما أسهل الدَّعوى!!! وما أكثر المُدَّعين!!

وقوله ﷺ : «والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطَّلع عليه النَّاس» .

قال النَّوويُّ في «شرح مسلمٍ» : [ومعنى : (حاك في صدرك) أي : تحرَّك فيه ، وتردَّد ، ولم ينشرح له الصَّدر ، وحصل في القلب منه الشَّكُّ ، وخوف كونه ذنباً][2] .

ويوضِّح المقصود من هذه الفقرة العظيمة الحديثُ ؛ الَّذي أورده الإمام النَّوويُّ في «أربعينه» بعد أن روىٰ حديث النَّواس ؛ الَّذي نشرحه الآن ، والحديث عن وابصة بن معبدٍ ، قال : أتيت رسول الله ﷺ ، فقال : «جئتَ تسألُ عن البرِّ؟» قلت : نعم . قال : «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ . البِرُّ ما اطمأنَّت إليه النَّفس ، واطمأنَّ إليه القلب ، والإثم ما حاك في النَّفس ، وتردَّد في الصَّدر ، وإن أفتاك النَّاس ، وَأَفتَوْك» .

قال النَّوويُّ : حديثٌ حسنٌ ، رويناه في مسنديْ الإمامين أحمد بن حنبل ،

---

(١) ذكر د . عبد الوهاب حومد بعض هذه الإحصائيات في كتابه : «الحقوق الجزائيَّة» .

(٢) شرح مسلمٍ ١٦/ ١١١ .

والدَّارميِّ بإسنادٍ حسنٍ[1].

إنَّ البرَّ حُسْنُ الخُلُق، والاستقامةُ على الخير، وهذا ما تطمئنُّ إليه نفس المسلم، وقوله ﷺ: «واطمأنَّ إليه القلب» بعد قوله «ما اطمأنَّت إليه النَّفس» من تأكيد المعنى، ولا يراد من الكلام التَّفريق بين النَّفس والقلب، الَّذي يمكن أن يكون وارداً في نصوصٍ أخرىٰ.

أمَّا الإثم؛ فإنَّ النَّفس المسلمة؛ الَّتي لم تُدَنَّسْ فطرتُها، لا تطمئنُّ له، ويتردَّد في صدر صاحبها، ويحوك.

إنَّ انتفاء الطُّمأنينة عند المسلم الواعي ذي الفطرة النَّقيَّة ملازمٌ للإثم، وفتوىٰ النَّاس لا تغيِّر من هذا الحكم. فقد يسمع المرء كلاماً يُرضيه، ويسوِّغ عملَه أمام النَّاس، ولكنَّه فيما بينه وبين نفسه لا يخلُص من الحرج، ويبقىٰ في قلقٍ، واضطرابٍ، وبعدٍ عن الطُّمأنينة.

ووجْدانُ المسلمِ الحيُّ هو الَّذي يحكم على الحوادث، والأشخاص، والتَّصرفات حكماً صحيحاً.

والمسلم الحقُّ ذو وجدانٍ حيٍّ يقظ، وذو فطرةٍ سليمةٍ من الشَّوائب، والانحرافات، ولديه حسٌّ مرهفٌ نقيٌّ، وشعورٌ بالمسؤولية بين يدي الله تعالى.

ولا يكون المسلم ذا وجهين: يكون أمام النَّاس على حالٍ، ويكون بينه وبين نفسه على حالٍ أخرىٰ... ولا يختلف رأيه في المسألة الواحدة بين السِّرِّ والعلن. الحرام حرامٌ في الحالين كليهما.. وهكذا...

إنَّ القِيَم لدىٰ المسلم الصَّادق ثابتةٌ ثبوتاً راسخاً، لا تبدِّلها مصلحةٌ، ولا يغيِّرها وضعٌ، ولا ظرفٌ. وليس هناك أشدُّ غفلةً من الَّذين يظنُّون: أنَّهم يقدرون أن يتعدَّوا حدود الله؛ إذا ما احتالوا على شكليَّات الأحكام الشَّرعيَّة.

---

(١) ذكر ذلك في الأربعين النَّووية الحديث ٢٧. وهذا وقد أورد ابن رجب في: «جامع العلوم والحكم» نقداً لسند الحديث، انظره في ٢/ ٩٤ من كتابه.

ومن هنا كانت الحيل الفقهيَّة ،الَّتي قد نعثرُ عليها عند بعض أدعياء الفقه غَيْرَ واردةٍ في ميزان الشَّرع ، ولا تتَّفق والنُّصوص الدِّينية الثَّابتة والصَّريحة ؛الَّتي تقرِّر :أنَّ الله تبارك وتعالىٰ يعلم السِّرَّ ،وأخفىٰ ، وأنَّه سبحانه يعلم خائنة الأعين ، وما تخفي الصُّدور: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧] ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾ [إبراهيم: ٣٨] ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩] وأنَّه تعالى مطَّلعٌ على أعمالنا لا يخفىٰ عليه شيءٌ في الأرض ، ولا في السَّماء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥] ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦] ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وبعد: أفليس الَّذي يظنُّ : أنَّه يحتال على العليم الخبير من كبار المغفَّلين المساكين؟ نعوذ بالله من الخِذلان ، ومن الضَّلال بعد الهُدى.

إنَّ الإثم ما حاك في النَّفس ، وتردَّد في الصَّدر ، وإن أفتاك النَّاس وأفتَوْك.

إنَّ الَّذي يحتال على الرِّبا بتصرُّفاتٍ لا تخفىٰ على النَّاس فضلاً عن الله قد وقع في الإثم ؛ وإن أفتاه النَّاس ؛ لأنَّه يكره أن يطَّلع النَّاس على ما في نفسه.

إنَّ الَّذي يتهرَّب من وجوب الزَّكاة بالحيلة الَّتي يظنُّها تنجيه من عذاب الله ، وهي لا تخفىٰ على الله وقع في الإثم ؛ وإن أفتاه النَّاس ، لأنَّه يسوءُه أن ينكشف أمره أمام الآخرين ، قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤].

إنَّ الحيل الشَّرعيَّة الَّتي تُحِلُّ ما حرَّم الله مردودةٌ ؛ لأنَّ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّما الأعمال بالنِّيات ، وإنَّما لكلِّ امرىءٍ ما نوىٰ»[1] والحديث الَّذي نحن بصدد شرحه يشير إلى أمرٍ يقع كثيراً ، ففي كتب الفقه أقوالٌ عدَّةٌ للمسألة

---

(١) انظر تخريجه عند الحديث التَّاسع عشر من هذا الكتاب.

الواحدة ، وبعضها ضعيفٌ مرجوحٌ ، وربما أشار مَنْ أوردها في كتابه إلى ضعفها . . . ولكنَّها موجودةٌ . . . فيعمد بعض أنصاف المتعلِّمين إلى الإفتاء بها ، وهم ليسوا أهلاً للفتوى . وقد يأتي إنسانٌ واقع في المخالفة ، يلتمس فتوى تخلِّصه من الحرج بينه وبين نفسه ، فيجد واحداً ممَّن ذكرنا ، فيقدِّم إليه الرَّأي المرجوح ، والقول الضَّعيف . . . فالرَّسول الكريم ﷺ يقرِّر : أنَّ فتوىٰ النَّاس لا تغيِّر من حقيقة الموقف شيئاً ، ولا تُخلِّصه من الحرج ، فلْيسألِ المرءُ نفسَه ، ولْيَسْتَفْتِ قلبَه ، ولا يعوِّلْ على الأقوال الواهية الضَّعيفة .

إنَّ هذا التَّحديد للإثم في قوله ﷺ : «والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطَّلع عليه النَّاس» يضع الإنسان وجهاً لوجه أمام مسؤوليته عن تصرُّفاته الخفيَّة ؛ الَّتي قد تخفىٰ على النَّاس ، ولكنَّها لا تخفىٰ على الله .

إذاً فمعرفة الإثم أمرٌ هيِّنٌ على كلِّ ذي ضميرٍ حيٍّ من المسلمين الصَّادقين ، والأمر واضحٌ أتمَّ الوضوح .

إنَّ على الَّذين يريدون النَّجاة من عذاب الله أن يجتنبوا الوقوع في الإثم ، وليستفتوا قلوبهم المؤمنة اليقظة .

والحديث يدلُّ على أنَّ الله فطر عباده على معرفة الحقِّ ، والسُّكون إليه ، وقبوله ، وركَّز في الطِّباع محبَّة ذلك ، والنُّفور عن ضدِّه .

وهذا المعنى قرَّرته أحاديثُ صحيحةٌ عدَّةٌ :

منها حديث عياض بن حمارٍ المُجاشعيِّ الذي أخرجه مسلمٌ[1] في كتاب الجنَّة ، وهو حديثٌ جميلٌ طويلٌ . . . جاء فيه قوله ﷺ عن ربِّه تبارك ، وتعالى : « . . . وإنِّي خلقت عبادي حنفاء كُلَّهم ، وإنَّهم أتتهم الشَّياطين فاجتالتهم[2] عن دينهم ، وحرَّمت عليهم ما أحْلَلْت لهم ، وأَمَرَتْهُم أن يشركوا بي ما لم أنزِّل به سُلطاناً . . . » .

---

(١) صحيح مسلم برقم ٢٨٦٥ .

(٢) أي : ذهبوا بهم ، وأزالوهم عمَّا كانوا عليه ، وجالوا معهم في الباطل . يقال : اجتال الرَّجل الشَّيء : إذا ذهب به .

ومنها حديث أبي هريرة الَّذي أخرجه البخاريُّ ، ومسلمٌ قال ﷺ: «ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه ، وينصِّرانه ، ويمجِّسانه ، كما تُنْتَجُ البهيمةُ جمعاء ، هل تُحِسُّون فيها من جَدْعَاء؟»[1] ثمَّ يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ . . .﴾ [الروم: ٣٠].

ولهذا سمَّى الله ما أمر به: معروفاً ، وما نهى عنه: منكراً. قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ﴾ [النحل: ٩٠] وقال تعالى في صفة الرَّسول ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وأخبر سبحانه: أنَّ قلوب المؤمنين تطمئنُّ بذكره ، ذلك: أنَّ القلب إذا حلَّ فيه نور الإيمان ، وانشرح به ، سكن للحقِّ ، وتقبَّله ، واطمأنَّ به ، ونفر عن الباطل ، وكرهه ، ولم يقبله. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقد دلَّ حديث وابصة ـ رضي الله عنه ـ على أنَّ ممَّا يُنصح به المسلمُ أن يرجع إلى قلبه المؤمن النَّيِّر عند الاشتباه ، فما سكن إليه قلبُه ، وانشرح له صدرُه ؛ فهو البرُّ ، والحلال ، وما كان خلاف ذلك ، فهو الإثمُ ، والحرامُ ، وفي ذلك تنميةٌ للحسِّ الإسلاميِّ الواعي ، وتعهُّدٌ للوِجْدان الحيِّ. . . وهذا على المدى الطَّويل يحقِّق الشَّخصيَّة الإسلاميَّة ؛ الَّتي تفكِّر بعقليةٍ إسلاميَّةٍ ومنهجٍ إسلاميٍّ ، وتَزِنُ الأمورَ كلَّها بميزان الشَّرع . وإذا تردَّد القلب في الحكم على أمرٍ ما من الأمور ؛ فعلىٰ المسلم أن يتوقَّف حتَّى يتبيَّن حقيقةَ هذا الأمر ، وموقفَ الشَّرع منه ، وفي الغالب: أنَّ القلب لا يتوقَّف إلا في المُشتبهات ؛

---

(١) انظر مسلم برقم ٢٦٥٨ ، واللَّفظ له ، والبخاريُّ برقم ١٣٥٨ ، وأحمد ٢/ ٢٧٥ و٣٣٣ و٣٩٣ و٤١٠ و٤٨١ ، والتِّرمذيُّ برقم ٢١٣٨ ، وانظر صحيح التِّرمذيِّ للألبانيِّ برقم ١٧٣٧ ، وأبو داود برقم ٤٧١٤ ، ومالكٌ ١/ ٢٤١.
وقد رواه عن النَّبي ﷺ الأسود بن سريع ، انظر ابن حبان موارد الظمآن ١٦٥٨ ، وأحمد ٣/ ٤٣٥ والبيهقيُّ ٩/ ١٣٠.
ورواه عن النَّبي ﷺ جابر ، انظر أحمد ٣/ ٣٥٣.

لأنَّ الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن . . فإذا توقف ؛ أتاح لنفسه فرصة الدِّراسة ، والمعرفة ، ونجا من الوقوع في الحرام .

والإثمُ مستنكرٌ في المجتمع الإسلاميِّ بحيث ينكره النَّاس عند اطِّلاعهم عليه ، فإذا كره المرء أن يطَّلع النَّاس على أمرٍ تردَّد هو فيه ، وكان قد صدر منه ؛ فليعلم : أنَّه ليس في دائرة الحلال ، وأنَّه هو الإثم ، وليرجع إلى الحقِّ . . إنَّ أعلىٰ مراتب معرفة الإثم عند الاشتباه أن يستنكره فاعلُه فيما بينه وبين نفسه ، وأن يستنكره المسلمون الآخرون .

إنَّ معرفة الإثم لا تتحقَّق إلا إذا كان المرءُ ممَّن شرح اللهُ صدرَه للإيمان . . .

ولا يَتْرُكْ قولَ المُفتي لمجرّد : أنَّه لم يسترح لفتواه . . بل لا بُدَّ من أن يكون متأثِّماً مِنْ فعل ما سأل عنه ، مرتاباً في علم ذاك ؛ الَّذي يُفتيه ، أو في تديُّنه ، وورعه ، كأن يفتي بالقول الضَّعيف المرجوح ، أو بالهوى ، أو بمجرَّد الظنِّ من غير دليلٍ شرعيٍّ .

أمَّا إذا كان مع المفتي دليلٌ شرعيٌّ ، وعرف حقيقة الأمر الَّذي يسأل عنه ، فالواجب الرُّجوع إليه ، وإن لم ينشرح صدرُه ، وهذا كمعرفة المرء بعض الأحكام الَّتي تخالف ما نشأ عليه واعتادَه ، فإنَّه ربما لا يستريح لها ، ويضيق صدرُه عند سماعها ، وهذا يقع فيه كثيرٌ من الجهَّال المتديِّنين ، فهذا لا عبرة به .

والخلاصةُ : أنَّ ما ورد به النَّصُّ فليس للمؤمن فيه إلا طاعةُ الله ، ورسولِه .

* * *